

قضية

تقول: «سنعود لنعيش معاً يا ذنوبنا... بعدما ظلمنا مع أطفالنا كما لم يظلم أحد» (أ ف ب)



كل ما احتاج إليه خليط من النساء السوريات المتضررات من الحرب، بتجاربهن المختلفة، هو ورشة عمل، لينتجن دراسات جدوى اقتصادية لمشاريع صغيرة، تتشارك فيها سيدات محربات ونازحات وشهداء، متحدات متعاليات على المأساة والجراح

إرادة النهضة السورية: «فتش عن المرأة!»

مرح ماشي

اللاذقية، مشهد لافت في مكان محاذٍ لشاطئ البحر في مدينة اللاذقية، يجمع أطفالاً محربين من الخطف لدى المسلحين، مع أبناء شهداء ونازحين، تحت رعاية وإشراف إحدى الجمعيات الأهلية. هدف هذا الدمج بين الأطفال هو تعويض ما فاتهم من دروس وسنوات مدرسية هدرتها الحرب من أعمارهم. متطوعات مختصات نفسي يشرف إضافة إلى اختصاصي نفسي يشرف على التبدلات والتطورات التي قد تطرأ تدريجاً على أوضاعهم النفسية. ومع تحضيراتهم للسفر إلى بيلاروسيا، قبل أكثر من شهر، لحضور مخيم ترفيهي تعليمي، عمدت الجمعية ذاتها إلى جمع أمهاتهم في ورشة عمل على مدار يومين متتاليين، لينتج منها ما يتير الدهشة فعلاً.

سيدات محربات ونازحات وزوجات شهداء يجلسن متجاورات، لمتابعة نماذج عن نساء مثلهن، من مختلف أنحاء العالم. شائشة إسقاط هي كل ما يلزم لاستحضار سيدات شهيرات تعرضن للخطف أو العنف أو الاغتصاب على يد مجموعات إرهابية، وتمكّن لاحقاً من جعل تجاربهن القاسية فرصاً لإيصال رسائل بلدانهن التي عانت لعنت الإرهاب والعنف. تدمع عينا إحداهن وهي تستمع إلى قصة الأيزيدية نادية مراد، التي روتها أمام مجلس الأمن، وتتفاعل بعضهن مع قصة الناشطة الباكستانية ملالا يوسف زاي، التي واجهت حركة «طالبان». بعضهن يظهرن عدم الاكتراث بالتقارير التي يشاهدنها، ويبدن شارادات الذهن... لعل ما مررن به كان أقسى من تلك التجارب. وبناءً على طلب المشرفة المحاضرة، تنقسم النسوة إلى 3 مجموعات عمل، ليطلب إليهن المشاركة معاً في إعداد وتقديم جدوى اقتصادية لمشاريع صغيرة، تعدّ الجمعية بتمويل أنجحها. دقائق ويحدث النقاش بين أفراد كل مجموعة، فيبدأ تبادل المعلومات عن أعمال صغيرة تجيدها معظمهن؛ كالخباطة وصنع الحلويات والمربيات وتحضير مؤن الشتاء. وفجأة تطفئ الفطرة الإنسانية الأولى على الحيا

والبرود. إحداهن استشهد زوجها في ذات المنطقة التي نزحت منها الأخرى، غير أن وضع أطفالهما جمعهما. وفي لحظة واحدة، تغلبت قدرة النساء البسيطات على اكتساب آلية التفكير المنطقية التي تجعلهن يتعاليين على الجراح، لتخفيف المأساة عن شريكة الوجع.

«لا اصدق الغلاء الحاصل!»

في ملامحها تتجلى عذابات مأساة دامت 1883 يوماً. هكذا تحصي روضة ظريف ياسين، أيام الخطف التي دامت لثلاث سنوات ونصف سنة، مع أطفالها الثلاثة الذين يبلغ أصغرهم السابعة من عمره. «كنت أعد الوقت بالدقائق والثواني أيضاً»، تقول المرأة. وتتابع: «زوجي شهيد مدني قتلوه أمام عيني. وسرقوا مالنا وذهبنا. وهكذا رجعت (على الحديدية) بعد تحريري منذ حوالي 8 أشهر». وعن سبب حضورها الورشة تقول: «أشارك في هذه الورشة من أجل ابني. كان يحتاج إلى تعويض تعليمي، فهو لم يتعلم منذ 3 سنوات». وتتابع: «سنعود لنعيش معاً يا ذنوبنا. إنما ستبقى شهادة زوجي غصة في قلبي، بعدما ظلمنا مع أطفالنا كما لم يُظلم أحد». وعن مشاريع الورشة تقول: «كنت أعمل في تحضير المؤن وشغل الخزن، قبل 4 سنوات. إنما أشعر بالعجز اليوم عن مساعدة النساء هنا في دراسة وتقديم جدوى اقتصادية. لا أعرف شيئاً عن الأسعار الحالية، ولم أعتد بعد على الغلاء المتزايد. بل لا أكاد أصدق الأسعار التي أسمعاها».

تجمعهن الشفقة والامتنان

لا يختلف وضع السيدة سحر مقديد، عن وضع سابقتها، باعتبارها زوجة شهيد مدني قضى في معارك ريف حماة. مقديد أم لأربعة أطفال، أصغرهن يبلغ عامين، فيما تفتخر أن لديها ابنة تحتل المركز الثاني على سوريا في الرسم. من الإيجابيات التي دفعتها إلى المشاركة في الورشة؛ ملاحظتها انضباط أولادها مع المشرفات المتطوعات وحصولهم على فائدة مقبولة. المرأة تحدثت إيجاباً عن مفاجأتها بعرض المشاريع خلال

الورشة، إذ إن لديها أفكاراً عدة للعمل. تقول: «سنعمل على مشروع لصنع المخللات. سأقدم بيتي مكاناً للعمل». وتعليقاً على رفيقاتها المشاركات في الورشة تقول: «أكثرنا خاسرات. وكلنا

تغلب قدرة النساء على الجراح لتخفيف المأساة عن شريكة الوجع

الحكومية بعد الآن». ويختلف الأمر قليلاً بالنسبة إلى ميرفت الشيخ، على الرغم من كونها زوجة شهيد ضابط، وأماً لطفلين. المرأة التي تعمل موظفة حكومية، وتتابع دراستها الجامعية في السنة الثالثة في قسم رياض الأطفال. تقول الشيخ: «لدي إيمان بحاجتنا إلى الدعم النفسي والمعنوي، وإن علي أن أكون قوية من أجل أولادي وبلدي، بدلاً من الندب والجلوس في منزلي». وتضيف: «أنا هنا ثقة بالنفس. وكلمنا سمعت

هدفنا واحد؛ هو الأطفال. تبادلنا هنا الحديث عن طموحاتنا، إذ إننا لا نفكر في أنفسنا بل في إيصال أطفالنا إلى بر الأمان». وتضيف: «إن تم ما أفكر فيه حول المشروع، فلن أحتاج إلى الوظيفة

مشكلة امرأة أخرى، اكتسب خبرة وخلاصة تجربة، فاستمد قوتي من قوتها وحلولها لمواجهة أزمته». تعتبر السيدة المكافحة أن مأساتها أصغر مما واجهته السيدات المحربات.

«أكثرنا خاسرات، وكلنا هدفنا واحد: هو الأطفال» (أ ف ب)



وتعتبر عن إعجابها بالسيدة الحلبية، إذ إنها تشارك في مشروع مجموعتها، متبرعة بتعليمها الخياطة. توضح مشاعرها بالقول: «لا علاقة لمواقفنا من بعض المهجرين، بالامتنان الذي أصابني أمام هذه السيدة. لا حقد لدي تجاه الآخر. لا ذنب لنا في مكان مولدنا. رضىنا أو لم نرض سنعيش معاً. ويكفيني رغبتها في أن تعلمني شيئاً، سواء نجحت أو فشلت في العمل لاحقاً».

المرأة الحلبية «المعلمة»

المرأة الحلبية النازحة التي يعجب معظم السيدات بشخصيتها، هي سعدة قاسم؛ من حي صلاح الدين في حلب. تعمل «أم جمعة» خياطة محترفة، وتعلمت تصفيف الشعر أيضاً، لتفتتح صالونها في حي الدعوتور الشعبي في مدينة اللاذقية، منذ تزوجها قبل 4 سنوات. تحضر ورشة الدعم من أجل طفلتيها أيضاً، بعد استشهاد ولديها العسكريين في الجيش، إضافة إلى زوجها. تقول عن النساء المشاركات: «أحس بهن جميعاً. كلنا نتالم من الخسارة. وأتمنى الصبر لنا جميعاً لاحتمال ما خسرنه. أكثرهن أزواجهن شهداء. وهن بلا معيل، لذا سأعتمد إلى تعليمهن صنعة يستفدن منها». وعند سؤالها السؤال اللعين ذاته: «هل تشعرين أنهن يختلفن عنك؟». تجيب المرأة ببساطة وطيبة واضحين: «نعم بالتأكيد. إنهن لا يعرفن الصنعة، بينما أنا معلمة. إنما أتذكر كيف بدأت في تعلم المهنة، وهم يريدن أن يبدأن العمل الآن. لذا أحب مساعدتهن». لم تسقط المرأة في فخ المناطقية والطائفية بإجاباتها السريعة، ما يعيد إلى الأذهان طيبة سورية قديمة، توارت خلف الدم الذي طوى على كل شيء. غير أن لديها فوقة من يعرف على من لا يعرف، ما يبعث على التفاؤل قليلاً. تضيف بحزن: «يكفي أنهم يربّين أيتاماً. ويعانين الفقر والظلم». لن تعود المرأة إلى حلب، فلم يبق من أهلها أحد، وهي لا تنسى وقفة أهالي حي الدعوتور معها، عقب استشهاد أبنائها، ولعل هنا من هن بحاجة إن تم المشروع الذي يجري الحديث عنه في الورشة، حسب تعبيرها.

العمل أو المتاجرة في المأساة

تري رئيسة «جمعية الصواري» الأهلية أفنان بلال، أن تفاعل الأطفال في ما بينهم أسهل وأسرع بكثير من تفاعل الأمهات، إذ إن مسافات تفصل بين النساء المجتمعات، بسبب اختلاف بيئاتهم ومستواهم التعليمي والثقافي. وتعد الجمعية على لسان رئيستها بتمويل كل المشاريع ذات الجدوى الاقتصادية الناجحة، إضافة إلى الإشراف على تقديم الدعم النفسي والصحي والتعليمي لـ 60 طفلاً، مع ورش عمل تمكين اقتصادي واجتماعي لامهاتهم اللواتي يصل عددهن إلى 40 امرأة. من جانبها، تجد المدرسة راما حسن، القيمة على الورشة، أن الاستجابة من قبل السيدات خلال الورشة كانت جيدة جداً، ولا سيما خلال النشاط الجماعي والنقاش حول المشاريع وتحفيزهن للعمل. وتقول: «شعرت بأنهن بدان يجدن قيمة لهن وأمل في تحسين واقعهن. إنما اضطرت إلى خفض مستوى المعلومات والمصطلحات إلى أبسط صيغة ممكنة وربطها بأحداث ووقائع يومية معيشية، بسبب تفاوت مستواهن التعليمي والثقافي». وتعتبر حسن أن أهم الصعوبات التي تواجه العمل مع هؤلاء السيدات حالة الاستسلام لدى بعضهن بالعجز والانتكال التام على الدولة ومؤسساتها أو على جمعيات ومنظمات المجتمع الأهلي، ما يؤدي إلى المتاجرة في المأساة، حسب تعبيرها. وتضيف: «يأتي دوري هنا في أن أقنعها بقدرتها على النهوض والعمل، من غير أن أقرم مأساتها وحجم معاناتها الهائلة، أو جرح مشاعرها».